أثر العولمة على تيارات الالتزام القومي في فن التصوير العربي المعاصر في بلاد الشام خلال القرن العشرين

ملخص البحث:

الفن ومنذ بدايته كان وظيفيا، وبدافع الحاجة، ولا تزال الحاجة والوظيفة تحكمه حتى يومنا هذا، وهو الوجه الثقافي والحضاري الباقي لأمة ما، يتحدث عنها على مر الزمن.

ونظرا لأهميته فقد لعبت السياسة به وتلاعبت، فحضارة العرب العريقة بقيت دون تدوين وتوثيق إبان فترة السبات الطويلة من الحكم العثماني، وما تلاه من استعمار غربي مما شكل عاملا مهما في تاريخ الثقافة العربية كان كافيا لتغييبها، فتجلى فراغا فنيا واضحا فيها، إذ لم يكن بالإمكان متابعة ما انتهى إليه الفن العربي قبل خمسة أو ستة قرون، وكان البديل في مجال فن التصوير هو النموذج الغربي، الذي جاء يعلّم الفنانين العرب الأوائل، ماعدا قلة من الفنانين الشعبين والفطريين الذين وجدوا هنا وهناك. فجاءت بدايات الحداثة التشكيلية العربية بدايات غريبة على الذوق العربي وتقاليد الرسم العربي، الذي كان يشكل وحدة قومية رغم تنوعه. فما مدى محافظة التصوير العربي المعاصر في بلاد الشام على هذه الخصوصية؟ وما أثر العولمة عليه؟.

عاش التصوير العربي في القرن العشرين كل تقلبات الفن التشكيلي العالمي، وكان الفارق الزمني كافيا لتتجاوزه الريادة. فالتطورات التكنولوجية والعلمية المتسارعة في بداية القرن العشرين؛ انعكست على الفن بشكل عام، والفن التشكيلي بشكل خاص. حتى لوحظ مؤخراً خروج التعبير الفني في العالم من إطار اللوحة، وبات العمل الفني التشكيلي يُرى، ويُسمع، ويُشم. فشهدت نهاية القرن أزمة إبداعية، تجلت بالعودة إلى كل المخزون التشكيلي للقرون السابقة.

على مستوى إقليم بلاد الشام – وفي أواخر القرن العشرين – أصبحنا نشهد في المعارض تجارب متناقضة ومتفاوتة، بدأت تبث عن قبول الآخر مهما اختلفت تجربته، وثقافته، وخصوصيته، حتى لو تناقضت مع حضارتنا وتقاليدنا. مما يقود إلى منطق العولمة، إذ أعلنت نفسها بديلا لكل ما هو أصيل ومحلي، متّسمة بالتكنولوجيا، ورأس المال، والإعلام الكوني، وكل ما يروج لفكر العولمة.

بقي الفنان العربي في بلاد الشام يقلب في صفحات مدارس الفن، تائها في زحام العولمة، بين خصوصية تلبي حاجات مجتمعه، وتطلعاته الجمالية والثقافية، وبين نقلة تُحدِث ما يتناسب مع الدور المطلوب في التركيبة الثقافية المرغوبة، يعبر عن إقدام وجرأة تارة، وعن حرص مجبول بالخوف على هويته والتزامه تارة أخرى. فالفنان العربي في ظل العولمة، يعاني من وجود أولويات في حياته، حرّضتها مجريات الأحداث اليومية، وجد فيها ما يهز كيانه ومشاعره، وما يفرض عليه عدم تجاهلها، فباتت مهمة الفنان العربي مهمة مضاعفه، إذ عليه تفعيل وعيه لمسؤوليته تجاه الوطن والمجتمع الجريحين، بالإضافة إلى اللحاق بركب السيالة المعلوماتية المتسارعة، ولا ننكر أنه صدم بعقبة الجمهور المتلقي، الذي احتاج مخزونا بصريا وثقافيا مناسبا لتطلعاته الفنية، ليكون – الجمهور– قادرا على الفرز الحضاري الواعي لما هو ايجابي وتجاوز ما هو رديء.

من كل ما سبق نتبين **مشكلة هذا البحث** خاصة أن الإنسان العربي حتى اليوم، وكذلك الفنان العربي في بلاد الشام بقي يعمل على جبهتين: ضد استعمار استيطاني، استهدف أرضه، وآخر ثقافي تحميه العولمة، استهدفتا حضارته، وتراثه، وأدمغته. وكانت دراسة المصورين العرب في بلدان غربية قد أنتجت قطيعة بين فنون بلادهم والفنون التي اكتسبوها، مما تطلب منهم بناء جسور للتواصل الحضاري بين معارفهم الداخلية ومعارفهم المكتسبة، لكن ثورة الاتصالات وسرعة تطور التكنولوجيا قد سارعت وتيرة تحولات اللوحة التصويرية المعاصرة، بحسب رؤية جديدة على الثقافة العربية التي لم تلبث أن وجدت توليفتها وحققت تفاعلها المعاصر مع مدارس التصوير في العالم؛ لتواجه من جديد مفهوما آخر تمثل بأفكار العولمة التي استهدفت الخصوصيات.

لقد تطلب من الفنان المصور في بلاد الشام أن يكون صوت شعبه في مراحل حياته الحاسمة، يتجاوز ما هو فردي وخاص، ليكون الشاهد على حقيقة قومية وإنسانية، وعلى قضية أمته النضالية. فتتالت مئات من الأعمال الفنية، التي تؤكد مدى تلازم الفن التشكيلي مع نضال الشعب، وقضاياه الكبرى والمصيرية: كعملية الصراع الوطني والقومي التي تبلورت، واحتدمت ضد الاستعمار بعد التجزئة (الاتفاقية المعروفة بـ: اتفاقية **سايكس بيكو**، والمعقودة في 16 أيار 1916. وتطبيقاتها في مؤتمر **سان ريمو** نيسان1920)– نكبة فلسطين – نكسة حزيران – الثورة الفلسطينية – حرب تشرين – الغزو النازي للقطر اللبناني – وحرب الإبادة التي يمارسها الكيان الإسرائيلي على الشعب الفلسطيني، والقوى الوطنية اللبنانية..... ثورة مصر1952، والعدوان الثلاثي على مصر عام 1956، وانتفاضة تونس، واستقلال المغرب، واندلاع ثورة 14 تموز 1958 في العراق، وقيام الوحدة بين مصر

وسورية ومن ثم انفصالها..... فعاش الفنانون العرب وخاصة في بلاد الشام مرحلة هامة من حياتهم وتجربتهم الفنية خصوصا بعد عدوان الخامس من حزيران عام 1967 وحتى اليوم.

إن أحداث حزيران وما جاء بعدها من عدوان على لبنان ومصر وعلى الأردن وسوريا؛ هزت الوجدان العربي والعالمي بأكمله. وتأثر الفنان العربي بهذه الأحداث في كل أنحاء الوطن العربي. ولعل صدور بيان بمناسبة انعقاد المؤتمر الأول للفنانين التشكيليين العرب مابين 4/25- 1973/4/30 في بغداد. قد أسفر عن نمو الوعي الوطني لدور الصحافة والأدباء والفنانين والمصلحين.

هذه الأحداث وغيرها كثير أكدت مجتمعة أهمية الصيحات التي أطلقت من الصحف منذ مطلع القرن العشرين، لتأخذ اليقظة القومية مداها في الأفق الوطني العربي، والتي شكلت ردود أفعال متباينة إزاء تدفق الثقافة الغربية في المحيط الفكري، والثقافي، والأدبي. لكن التيارات المهمة دعت للبحث عن مصادر لإلهامها في ميادين الفن العربي المتوارث، فكان الفن القومي ومنه التصوير القومي بادرة من بوادر اليقظة العربية الثقافية، وتشكُل القناعات الفكرية، بضرورة استلهام الفنون العربية، رغم الوقوف على اتجاهات وتيارات الفن الجديدة، وهذا ما يقود إلى التفتح القومي، والدعوة إلى البحث عن الينابيع.

لكن ثمة **مشكلة** تكمن في تساؤل المرء، في هذا العصر المتطور، السريع التغير، الذي نعيش فيه، عما إذا كان من الممكن التحدث حقيقة عن فن قومي، أم أن ذلك ضرب من العبث. إذ أن التحدث عن القومية فيما مضى كان أمرا حتمته بعض الأوضاع التاريخية التي عزلت الشعوب بعضها عن البعض مئات من السنين، كونوا فيها اتجاهات، وعادات خاصة، ميزتهم بتفاعلاتهم بعضهم مع البعض عن غيرهم من الشعوب، بحيث أن انعكاس هذه التفاعلات التي نشاهد آثارها في الفنون التراثية والفن الإسلامي يبين لنا بوضوح مدى الصعوبة التي نواجهها حينما نفكر في العصر الحاضر في فن قومي. فإذا كان الانعزال هو العامل الذي فصل بين شعب وآخر، وجعل كل شعب يركز على ما عنده، فإن هذا العامل أصبح من الصعب تصوره في عالمنا المعاصر.

فن التصوير كمصدر حضاري لا بد أن يتسم بطابع متميز يحدد أصالته ومشروعيته. والطابع القومي المتماسك في الفن، عامل أساسي في بناء حضارة من الحضارات، كما هو عامل أساسي في تأكيد المعالم القومية للأمة. وفكرة قيام فن قومي لا تعني فقط الاحتفاظ بالتقاليد المشتركة للفن العربي، بل تعني تمثيل هذه التقاليد في بناء فن

عربي حديث، يتماشى مع تطورات العصر. فالفن العربي هو الخط البياني للتطور الفكري والذوقي، وهو عالم قائم بذاته، يفرض وحدته على أطراف الأمة العربية المجزئة، لأنه يعبر عن روح الأمة وهو من أهم دعائم التفكير القومي في زمن العولمة التي توضحت مؤخرا ونضجت كمفهوم وكمصطلح.

سبقت العولمة التي نشهدها اليوم، عولمات صغيرة مهدت لها. والجديد فيها هو تزايد وتيرة تسارعها في الفترة الأخيرة، بفضل تقدم وسائل الإعلام، والاتصال، ووسائل النقل، والمواصلات، والتقدم العلمي بشكل عام. فبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، بدت لنا آثارا تعد منعطفا مهما في تاريخ العولمة، إذ تجلى واضحا أن الهيمنة الحقيقية، لا ينبغي أن تكون عسكرية، وإنما ثقافية، واقتصادية. وهذا ما ينتج عنه الهيمنة السياسية الشاملة.

في ظل هذه الأجواء، تغيرت الكثير من المفاهيم. وبدت كلمة فن، تطلق في عصرنا الحديث، على كل محاولة يبتدعها الإنسان، أيا كانت قيمتها الفنية، بحيث يتوفر فيها شرط الجمال والإبداع.

أما الفن التشكيلي الذي تعرفت إليه البلاد العربية مع نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، ونشط في النصف الثاني منه. واللوحة التصويرية هي إحدى الفنون البصرية التي ازدهرت في أجواء العولمة، وهي تحقق الحوار والاتصال اللغوي عبر الصورة، التي تمثل صيغة تشكيلية لإدراك الحياة والعلم، تعادل في أهميتها الصيغة اللغوية. إذ أن اللوحة التصويرية المبدعة، تصريح يجسد استيعاب الفنان للواقع، وخاصة الواقع السياسي، والقضايا الساخنة، التي مست قلب الوطن العربي (فلسطين). والفنان يتعرض للمواقف في شعوره الخاص، فإذا كانت الصورة الناتجة جيدة، فإنها تعمل كجسر بين قلب الفنان وعقله، وقلب المشاهد وعقله. وبذلك يكتسب المشاهد بصائر جديدة في طبيعة الأشياء. وتبرز أهمية اللوحة التصويرية في أنها من أدوات الغزو الثقافي المعاصر، تتغلغل مضامينها إلى بصيرة وأعماق النفس البشرية، عبر خطابها البصري الذي تتضمنه بطريقة مباشرة أو غير مباشرة. ومع الوقت تنمو الاستجابة لخطاب اللوحة التصويرية.

من هنا كانت مسألة الاهتمام بدراسة فن التصوير الملتزم دراسة معمقة في ظل العولمة، والاهتمام بوظيفته التي إذا تخلى عنها قد يصبح عرضة للتضليل والانحراف. على أن التيارات الفنية العربية كانت أمام رصيد غني بمناهل الإبداع، فالفنان عادة يرافق تطور الحياة في مجتمعه، بل من الممكن أن يعطي إنتاجه صورة واضحة وعميقة جدا للمرحلة

الحضارية التي يعيشها مجتمعه. فيلتزم الفن القضايا القومية، مستمدا نسغه من التقاليد الراسخة، والقضايا السائدة، ومن الأصول العريقة، ومن التجارب المتعددة.

يهتم هذا البحث بدراسة الأعمال الفنية التصويرية العربية الملتزمة في بلاد الشام، والتي تعبر عن البعد القومي العربي في ظل العولمة وتطور مفهومها، وفي ظل الأجواء السياسية، بهدف تسليط الضوء على ما يلتزم منها بتجسيد هموم ومشاكل وآمال الإنسان العربي، من حيث هي فن في مقدمة الفنون التشكيلية، التي لا تقل أهميتها عن الفنون الأخرى، في تحريك الحس الوجداني في نفوس المتلقين العرب.

وعمل البحث على الإجابة عن جملة من الأسئلة، حول أثر العولمة على ماهية اللوحة التصويرية القومية الملتزمة في بلاد الشام، فيما إذا كانت ملتزمة هادفة!. أو لها سمات تعنى بالأشكال أو المضامين!. وهل خدمت العولمة قضايا وطموحات الجماهير وحاجاتهم؟. و ما مدى تأثير الأحداث السياسية على نتاج المصورين العرب؟. وهل رسخ هذا النتاج هوية الإنسان العربي؟ وكيف تبقى الفنون العربية متجذرة في تربتها، وأرضها، وكيف تحلق في الوقت نفسه في فضاء العولمة؟.

إن كل هذا جعل البحث، يهتم بجوهر نتاج الفنان المصور العربي، في ظل المتغيرات المعاصرة، بما يخص القضايا القومية الملتزمة، والتنقيب عن التعبيرات الوجدانية في أعماله، خصوصا في الدول العربية القريبة من مركز المواجهة مع التحدي الأكبر، المتمثل بالوجود الصهيوني على أرض فلسطين العربية. والذي يجعل من دور الفن في بلاد الشام (سوريا – لبنان – الأردن – فلسطين) دورا تضاعفت أهميته و تأكدت حتمية أن يحمل ضمن رسالته أهدافا تخدم قضاياه المصيرية.

على ما سبق نجد أن **مشكلة البحث** تكمن في محاولة التصدي لإعاقات الالتزام القومي في فن التصوير العربي، ليحيط التجربة العربية بشيء من الحصانة، والحد من تأثير العولمة السلبية على هذه السيّالة الفنية المهمة من فنوننا البصرية، التي مازالت تُتَهم جملة وتفصيلا بعدم القدرة على بلوغ العالمية، ومن تغييب الفن التشكيلي الملتزم بالقضايا الساخنة في الوسط العربي، ولنفعِّله ليأخذ دوره الحقيقي في تنمية الحس القومي العربي، والمحافظة على الهوية العربية، والخصوصية الفنية، التي تضمن للشعب العربي البقاء، والمساهمة في الركب الحضاري العالمي. وتوظيف العولمة الإنسانية، لخدمة القضايا المصيرية، لتكون في طليعة القضايا الدولية الهامة.

منهج البحث:

سيعتمد هذا البحث على المنهج التحليلي، والوصفي، والمقارن. إذ أنه سيقوم على تحليل خصائص الفن الملتزم القومي بالهموم العربية، ومن ثم مقارنتها بالتيارات الفنية الأخرى..

أهمية البحث:

قليلة هي الأبحاث التي عملت على دراسة أثر العولمة على فن التصوير الملتزم بالقضايا القومية العربية، خاصة في بلاد الشام. وعليه يكتسب هذا البحث أهميته في إضافة دراسة معمقة جديدة، تفيد جيل الشباب المهتمين بالفنون التشكيلية، واللوحة التصويرية. وتضيف كتابا إلى المكتبة العربية، تعنى بوحدة بصرية فعالة في تنمية الفكر العربي. وتسلط الضوء على عدة أعمال تصويرية ملتزمة في كل من: (سوريا– لبنان– الأردن– فلسطين)، التي تركت أثرا، ونالت تقديرا، في الحياة التشكيلية المحلية والعربية والعالمية.

الحدود الزمانية والمكانية للبحث:

يختص هذا البحث، بدراسة الأعمال الفنية التصويرية العربية الملتزمة القومية، التي جسدت هموم، ومشاكل، وآمال الإنسان العربي، وطموحاته، وتطلعاته، في أجواء العولمة. وعلى مساحة محددة من الوطن العرب شملت بلاد الشام (سورية، لبنان، فلسطين، الأردن) التي تعتبر ساحة ساخنة بالأحداث، لوجود فلسطين قلب الأمة العربية المجروح فيها، الغني بالأحداث السياسية، التي شغلت وتشغل الرأي العام العالمي.

أهداف البحث:

*– دراسة أثر العولمة على الأعمال التصويرية في بلاد الشام، التي تحمل مضامين قومية ملتزمة بالقضايا العربية. وبيان ما حافظ منها على أصالته وثوابته.

*– محاولة رسم ملامح للتصوير العربي المعاصر في بلاد الشام، الذي يجسد الفكر القومي الملتزم بالهموم المشتركة.

*– إثبات إمكانية الفنان العربي في بلاد الشام، من التوصل إلى تجسيد الموضوعات القومية الملتزمة في بوتقة العولمة، وبأساليب تنم عن قدراته وخصوصيته الذاتية والعربية.

بدأ البحث بمقدمة امتدت على نحو إحدى عشرة صفحة كانت بمثابة تمهيد للبحث، تضمنت لمحة سياسية سريعة عن الحالة التي كانت سائدة قبل البدايات التشكيلية العربية المعاصرة في إقليم بلاد الشام، التي بدأت بالسفر للخارج، أو بالتتلمذ على أيدي وافدين إلى البلاد العربية. سواء كانت بهدف الاستشراق أو الاستعمار، وبدايات التعلم الأكاديمي للفنون الجميلة بفروعها في بلدان بلاد الشام.

تلا المقدمة ستة فصول حاول البحث من خلالها الإحاطة "بأثر العولمة على تيارات الالتزام القومي في فن التصوير العربي المعاصر في بلاد الشام خلال القرن العشرين".

تناول **الفصل الأول** مدخلا للبحث من منطلق التركيز على أهمية الفن الذي تنتمي إليه اللوحة التصويرية، وأهمية رسائله الجمالية، والتوجيهية، والقومية، والأخلاقية الإنسانية، باعتبارها رسائل تبث عبر المشهد البصري المتمثل باللوحة التصويرية، وعبر خطابها في زمن ثورة الاتصالات، التي أمنت سرعة وصولها إلى كل فرد في أي مكان بأدوات ترويج الصورة، وهي أدوات مغرية تدغدغ البصر والبصيرة. ورسائل الفن مجتمعة لا يمكن فصلها عن بعضها تبدأ بالرسالة الجمالية التي تمنح الحياة البشرية لذة تنسجم مع الطبيعة البشرية فتكون أحد متطلبات استمرار الحياة الطبيعية، والحاجة الجمالية هي أرسخ الحاجات التي تميز الكائن البشري، وتعمل كقوة محركة ومتممة في مختلف ميادين النشاط الإنساني. والجمال لا يكون الغاية دائما من العمل الفني، بل وسيلة لطرح الأفكار والمعلومات لذا وجب الحديث عن رسالة الفن التوجيهية، فقد عرف للفن دوره الفعال بالنسبة للمعارك المصيرية، فهو يحول القناعات السطحية أو العقلية إلى شيء ملموس في دم الإنسان ونفسه، ويكرس إرادة المواجهة لأنه محرض للنشاط الإنساني عبر خطابه. واللوحة التصويرية الأصيلة تبقى حية وتستطيع التغيير إذا كان من وراءها هدف وقضية، وخطابها يلعب دورا هاما في نشر المعرفة والثقافة والوعي، ولها وظائف قومية، فليس من وسيلة للتحدث عن الأمم بمثل ما يتحدث عنها الفن، فثمة ارتباط وثيق بين روح الأمة وفنها، وهو تعبير عن الرخاء الإبداعي، وتكريسا للعبقرية القومية، كي تبقى آبدة تتحدث عن التاريخ الحضاري لأمة ما، والحياة المثلى مزيج من الفن والأخلاق، فلا أخلاق بلا فن ولا فن بلا أخلاق، وكل ما هو فن أصيل هو فن أخلاقي، وكل ما هو أخلاقي أصيل هو فني ذوقي.

تحدث الفصل الأول أيضا عن الخطاب البصري للوحة التصويرية، باعتبارها من أدوات العولمة، تتغلغل مضامينها إلى بصيرة وأعماق النفس البشرية، وعن اليقظة العربية في

المجال السياسي والثقافي والفني، فكانت يقظة العرب في المجال السياسي تعني توقهم لتقرير مصيرهم، والحصول على حقوقهم السياسية، وإعطائهم نوعا من الحكم الذاتي ضمن إطار الدولة العثمانية، وفي المجال الثقافي كانت يقظة العرب تعني وعيهم لأهمية تاريخهم الحضاري ومكانة موروثهم الفني بين فنون العالم، وكذلك الوعي للتاريخ الفني القومي العربي، والوحدة فيه، وإعادة إحياء التراث القومي العربي، وصياغة فن عربي معاصر يتماشى مع العصر الحديث.

ووضح البحث في هذا الفصل مفهوم الالتزام القومي في اللوحة التصويرية في زمن العولمة، فالفنان يرافق عادة تطور الحياة في مجتمعه، بل إن إنتاجه هو صورة واضحة وعميقة جدا للمرحلة الحضارية التي تعيشها أمته. ويرتكز مفهوم الفن القومي على جملة من الأحاسيس، التي تتصل بالجمهور، وتعبر عن المجتمع بقواعده العريضة، إنه تجربة تشكيلية جادة مرتبطة بقضايا العرب دون أن تنفصل عن الأصالة والمعاصرة، وهو الحرية في التعبير، والحرية في البحث الفني، بما تمليه المعاناة الحقيقية للمضمون المرتبط بقضايا المجتمع والإنسان العربي.

وعليه فإن أهمية الفن وأهمية تجسيد الفكر القومي في الأعمال التصويرية العربية في بلاد الشام؛ جعلت العولمة تستهدفه بأفكارها وتسعى لتوظيفه لخدمة مآربها وتحقيق أهدافها.

الفصل الثاني كان تحت عنوان: التفاعل الثقافي ونشأة التصوير العربي المعاصر، تضمن التأكيد على أهمية تاريخ التصوير العربي وجذوره القومية، من منطلق التفاعل الثقافي. فتعاقب الحضارات المتعددة على بلاد الشام: فارسية، ويونانية، ورومانية ..... وغيرها. والتي أهمها: الحضارة الكنعانية والفينيقية، والحضارة العربية الإسلامية. كان لها دور كبير في تطور ثقافة الإنسان العربي بكل أبعادها، فتحدث البحث عن تفاعل الحضارات القديمة، والفن الأيقوني، والفن الإسلامي (المنمنمات– الرقش– فنون القرآن الكريم)، وكان اختلاف الطرز فيه، يعزى لاختلاف التأثيرات الحضارية القومية، وظهورها من خلال الفكر الإسلامي، وهذا ما جعل من الفن الإسلامي فنا متنوعا ضمن وحدة في الطرح، يجمعها الفكر الإسلامي. فالهوية الإسلامية هوية معروفة ومتميزة، لأنها تمثل شمولية الفكر الإنساني. والحضارة الإسلامية شهدت الاستمرار، لأنها كانت حضارة منفتحة على الحضارات الأخرى، فتأخذ ما تراه مفيدا، وتستطيع استيعابه لغاياتها.

ثم تناول البحث التفاعل الثقافي بين الحضارتين العربية والغربية، موضحا أثر الفن العربي في التصوير الغربي الحديث، وأثر الاستشراق على الفن العربي، وصولا للحديث عن المبحث الأهم وهو نشأة التصوير العربي المعاصر في بلاد الشام، الذي كان حصيلة لذاك التفاعل وتلك الظروف. وتم تناول بدايات الفن التشكيلي العربي الأولى بصيغته المعاصرة في أقطار إقليم بلاد الشام.

إذ تلمس الفنانون الرواد الصعاب في التعبير عن مواقفهم وتطلعاتهم لإحداث التغيير داخل البنية الاجتماعية إزاء الفن ودوره الحضاري..... مؤكدين على ارتباط الفن بالمجتمع، وبالحضارة العربية، وبطابع الحضارة الراهنة، وبالنظرة المستقبلية. وعلى الرغم من التأثر بالموجات الأوربية الحديثة، ولكن تأكدت فيما بعد معالم الثورة التشكيلية، في إنتاج خرج عن الأساليب الأكاديمية، وبريق الانطباعية، للبحث عن ملامح خاصة حتى خلال البيانات الفكرية.

وفي **الفصل الثالث** الذي تحدث عن العولمة وثورة التكنولوجية وأثرها على التصوير المعاصر في بلاد الشام؛ تم توضيح نشأة العولمة والتعريف بها وبجوهرها وأدواتها، التي تعتبر اللوحة التصويرية من أهمها، كصورة تحمل خطابا بصريا. وكذلك الفرق بين العولمة وبين العالمية، وأوردنا بعض الأمثلة عن عولمات صغيرة، كانت أسبابها قديما إرادة الاستكشاف، التي دفعت بالإنسان للبحث والاطلاع، وقام خلال ذلك بنشر معارفه، وتبادل خبرات الحياة مع غيره، وبالمقارنة مع عولمة اليوم كان ما يخيب الآمال أو يثيرها. فعولمة اليوم تعتمد على التكنولوجيا وثورة الاتصالات لبث المعلومات التي تروج لها، ولتأمين الانتشار الواسع للصورة التي بدأت تتدخل في إنتاجها، وتتدخل في تحولات اللوحة التصويرية المعاصرة.

اكتسحت التكنولوجيا كل مجالات الإبداع، وأربكت الفنون التشكيلية واللوحة. إذ أتاح الانفتاح على التكنولوجيا الحديثة طفرة هائلة من الحركات الفنية، لأن الفن في ثورة دائمة – كما العلم – بحثا عن المجهول الذي لم يُكتشف بعد. أي أن الفن يطمح في إنتاجه نحو المستقبل، ليساهم في صنعه. ولم ننس في هذا المبحث أن للعولمة آثار إيجابية فيما لو كانت عولمة أخلاقية إنسانية أهدافها نبيلة.

وفي المبحث الثالث والرابع من هذا الفصل كان البحث في تغلغل فكر العولمة وأثر الغزو الثقافي على فن التصوير الملتزم، وتم توصيف طابع التصوير المعاصر في ظل العولمة، ومن ثم أثره على التصوير القومي في بلاد الشام، إذ بدأ يختلف الطابع القومي

لفنوننا المتوارثة عنه في العصر الحديث، الذي اتسم بالعديد من التغيرات، لأن ممارسة فن التصوير العربي القومي، يعزز ثقافة المقاومة والمواجهة، وهو رفض للعدوان، وهو غضب وإصرار على التصدي.

في **الفصل الرابع** تم تحديد العوامل التي مكنت فن التصوير في بلاد الشام من مواجهة الغزو الثقافي الذي تعرضت له، وأطلقنا عليها: (عوامل الحصانة الداخلية لمواجهة الاختراق الثقافي في اللوحة التصويرية في بلاد الشام)، كان ذلك بعد أن تعرض الفنان المصور في بلاد الشام لأزمة الثقة بالنفس، وكيف كانت ردة فعله تجاه العولمة ممثلة بالاختراق الثقافي.

وكان لمناهل الفكر القومي في اللوحة التصويرية المعاصرة في بلاد الشام من وجهة نظر البحث؛ الدور في تحديد تيارات فن التصوير القومي المعاصر في بلاد الشام، وكانت هذه المناهل ترتكز على التراث والموروث الثقافي والفني والحرف العربي والرموز، بالإضافة إلى الأحداث السياسية الساخنة التي زخرت بها الأرض العربية، لاسيما بلاد الشام أرض المقدسات، واستيطان العدو الصهيوني في فلسطين. وكذلك استلهم الفنان المصور في بلاد الشام من مجريات الحياة اليومية الاجتماعية في بيئته المحلية والعربية، التي كانت منهلا للعديد من الموضوعات، اعتمد في تجسيدها على التراث من حيث المفردات التي كونت الشكل البصري، لكن بقي الفنان يعتمد على التقنية الوافدة في التصوير. وتم التركيز على اللوحة الحروفية التي رأيناها نواة لتشكيل مدرسة عربية في فن التصوير العربي.

وكان المبحث الثالث والأخير في هذا الفصل عن ضرورة وأهمية تعزيز ثقافة المقاومة، لأن مفهوم المقاومة كان أحد أهم عوامل الحصانة الفكرية عند الفنان، تجسد من خلال الرؤية البصرية للوحة التصويرية.

ولم يغفل البحث عن دور النقد كعامل مهم وجه التصوير المعاصر في بداياته الأولى، وكان ضروريا في تقريب الفن من الجمهور، وكان الاهتمام بالنقد وتطويره ضروريا ليقف مع اللوحة في بلاد الشام، لتكون إرثا فنيا يشترك في بناء الحضارة العربية، لأن الفنون التشكيلية أكثر عرضة من غيرها لفقدان الهوية. بالإضافة إلى أن نتائج التقدم التقني، أثرت تأثيرا كبيرا في مجال ظهور أجناس فنية جديدة، احتاجت إلى مواكبة النقد لها. فالناقد يشبه الطبيب في زمن العولمة، يحلل، ويعاين، ويشخص، ومن ثم يصف الدواء، ويشترط في ذلك توفر الأسلوب البناء، واحترام الإبداعات الحقيقية، وبذلك يتحقق الهدف في إلغاء الاستخدام الشائع للنقد على أنه ذم.

أما **الفصل الخامس** فكان فصل التحليل والاستنتاجات، تضمن دراسات تحليلية لأعمال تصويرية مختارة من بلاد الشام من جهة الشكل والأسلوب، أو من جهة الموضوع والمضمون، ليصار في نهاية التحليل إلى استنتاج الطابع القومي للتصوير في بلاد الشام، إذ أنه تجلى عبر الاعتماد على الشكل البحت المستلهم من التراث من حيث أنه يصلح لأن يكون المسؤول عن صياغة الوحدة في الفن العربي، وبالتالي تأكيد البعد القومي فيه، فالشكل يسبق التعليل والتفسير في الفن، ويظل الشكل والأسلوب ملتقى كل من الفنان والعالم. أو على الموضوع والمضمون فالاهتمام بالمضمون هو تجسيد للقضايا العربية الملحة بأدوات التعبير المتاحة للفنان المصور بحسب قدراته الفنية والتشكيلية. أو عبر تلازم الاهتمام بالشكل والمضمون أي بناء اللوحة على التوافق بين الشكل بكل عناصره، والمضمون الذي تحدده رؤية الفنان، وثقافته، وفكره، وموقفه، ووعيه الحضاري بكل من التراث الإنساني وملامح الحاضر أو عندما حاول الفنان المصور في بلاد الشام الابتكار ضمن مدارس الفن التشكيلي العالمي، وتطويعها لخدمة معالجاته الفنية ذات الموضوعات المحلية والعربية والتي تتماهى مع مخزونه الثقافي، وتخدم المرحلة وكان الطابع الأهم الذي يمثل اللوحة التصويرية العربية في بلاد الشام. وقد اهتم البحث بدراسة أثر العولمة على شكل ومضمون اللوحة التصويرية في بلاد الشام، من حيث الاستغراق بالذاتية الفردية، والمبالغة بالتجريب والابتكار ضمن تجربة الفنان الواحد، وتجلي سمات الانفعالية والارتجال في اللوحة، حتى باتت الحرية في الفن مطلقة ما لم يتناسب مع ثقافتنا الفنية المتوارثة والعقلانية.

وأكثر ما هتم به هذا الفصل كان بدراسة أثر العولمة على تيارات الالتزام القومي التصويرية في بلاد الشام، إذ تجلت من خلال البحث ثلاث تيارات في التجربة التصويرية العربية ذات الأبعاد القومية في بلاد الشام، وذلك بالاعتماد على مناهل الفكر القومي التي سبق ذكرها في سياق البحث، أي التيار الذي يستلهم التراث ويمكن أن نطلق عليه تيار التراث العربي، أو الذي يستخدم رموز البيئة العربية أو رموز المواجهة مع الغزو الاستيطاني وهي رموز مستلهمة من مفردات المعارك، ويمكن تسميته تيار الرموز العربية، أو التيار الذي اعتمد على استلهام الحرف العربي، وهو التيار الأكثر وضوحا من حيث استخدام الحرف العربي كأحد الرموز القومية التي دخلت معترك المعاصرة بقوة وثقة، ويدعى تيار الحروفية العربية، وهو تيار حقق حضوره في التجربة التشكيلية المعاصرة، وله أساليب واتجاهات تعددت بحسب طريقة تناول الفنان للحروف العربية في اللوحة التصويرية.

تضمن **الفصل السادس** الصور التوضيحية، وهي نماذج صور ملونة لمجموعة لوحات لفنانين من بلاد الشام، اخترناها متنوعة التجارب لتقوم بتوضيح الأفكار المطروحة في البحث، ولتسهيل التعبير عن الغاية والهدف من البحث.

ثم كان للبحث الخاتمة التي تضمنت نتائج توصل إليها البحث، فإن لم تكن كافة التجارب التصويرية في بلاد الشام سدا مانعا ومتصديا للغزو الثقافي الغربي عبر منبر العولمة والتكنولوجية الحديثة والتواصل والاتصال، لكن فن التصوير بالصورة العامة في هذه الرقعة من الوطن العربي لم يتجاهل الهوية والخصوصية في نتاجه المعاصر، وشكلت حيزا كبيرا من اهتماماته، إلا أنها لم تكن ثابتة، بل كانت هوية متغيرة متأثرة إلى حد ما بمتغيرات العصر والعولمة، التي حاول الفنان تطويعها لإظهار الملامح القومية العربية.

توصل العديد من الفنانون العرب إلى تشكيل خصوصية عربية من خلال التجريب والابتكار ضمن مدارس الفن العالمية، وكانت الواقعية التصويرية تعبر عن البيئة المحلية في بلاد الشام، أما من جهة التجريد الذي كان أكثر من اتهم بالتأثر بالعولمة فقد تجلت فروق واضحة بينه وبين التجارب الرائجة في العالم، كان من أهمها في مجال الذاتية والخصوصية الفردية. ذلك أن التجريد في بلاد الشام كان في أغلبه مستمد من المورورث الفني العربي الإسلامي الذي بحث عن القيم الفنية التي تقوم على الاتصال المستمر بالله والمطلق، أما التجريد الغربي فقد اهتم وبحث في أكثر الحالات عن قيم شخصية وذاتية، كما أن الفن الإسلامي عقلاني بينما ظهرت الحالات الانفعالية في الفن الذي تأثر بالعولمة.

وعليه فقد بقي الكثير من الفنانين العرب في بلاد الشام أمناء لأصالتهم التراثية التي تجلت في نتاجهم التصويري، وبالرغم من ظهور التجريد في لوحاتهم لكن أغلبها قد كثف من علامات الثقافة العربية، ومن رموز الذاكرة الشعبية، وبرزت بوضوح قضايا وهموم الإنسان العربي. وبدا تأثير العولمة عندما غاب الموضوع والمضمون، أما من جهة الشكل البصري فقد تجلى في كثرة التجارب والابتكارات في تجربة الفنان الواحد أو في تنوع التجارب في النتاج التصويري العام فكان الفنان العربي دائم البحث؛ يجرب، يعالج، يتحسس، يتلمس مختلف الاتجاهات حتى يتوصل إلى أسلوبه الخاص الذاتي، وكان على الأغلب جامعا لأكثر من اتجاه. أي أن الهم الأكبر عند الفنان كان التوصل إلى الأسلوب الذاتي وليس الأسلوب الذي يجمعه مع تجارب غيره من الفنانين العرب. ومع ذلك نستطيع القول أن فن التصوير القومي العربي في بلاد الشام قد تأثر بأساليب التشكيل في العالم من ناحية الأسلوب والتقنية، بينما كانت الفكرة العربية تظهر جلية في المضامين المطروحة، والموضوعات المجسدة،

وتكثيف الرموز المحلية والعربية، وعندما ظهرت الوحدة في الإنتاج التصويري القومي من ناحية الشكل كانت هذه الأعمال تستمد صيغها الشكلانية من الفن الإسلامي والموروث الفني العربي ومفاهيمه في الوحدة والتكامل والانسجام والتناظر والأرابيسك. ولأن الزخرفة والتزيين مخزون فني روحي في الطبع العربي؛ هذا ما جعله يتجلى في أغلب التجارب التشكيلية والتصويرية العربية في بلاد الشام، وجعل من هذه السمة عاملا قوميا مهما اتصل بالموروث الفني والعقائدي، وقدمه الفنان بشكل معاصر.

تضمن الفصل السادس أيضا تجربة الباحثة وهي تجربة قامت الباحثة بإنجازها خلال الفترة الزمنية للبحث، لكن تعمدت إضافة تجربتها السابقة أي خلال انجاز البحث الذي أعدته لنيل درجة الماجستير بالفنون الجميلة وقسم التصوير وهو بعنوان: "أثر البيئة المحلية على فن التصوير السوري المعاصر خلال القرن العشرين" وقد استمرت تجربتها من جهة الأسلوب تتشابه مع سابقتها التي كانت استلهاما للموروث الفني المتعلق ببعض مفردات البيئة الشعبية في بلاد الشام وبالموزاييك، وقد أطلق بعض النقاد على هذا الأسلوب: (الموزاييك اللوني)، أما الموضوعات التي كانت مباشرة في طرحها وهي واقعية من البيئة المحلية الشعبية تحولت باتجاه الرموز والمفردات التشكيلية في بناء سريالي الطابع.

واتبعت هذه الدراسة وهذا البحث بفهرست الصور والأشكال التي تضمنها البحث ومن ثم بالمراجع والمصادر العربية والأجنبية، وكانت مرتبة بحسب ورودها في البحث.